

DOCTOR
FAUSTUS
BY
CH. MARLOWE
دكتور فاوست
(مأساة الرجل الذى باع روحه للشيطان)
للشاعر الدرامى الانجليزى
كريستوفر مارلو

عزيزى القــارئ :

الخــير : أزلى فى نفوس البشر ـــ والشر أزلى كذلك ، والصراع بينهما لا يفتأ يتكرر ، بل هو دائر الرحى ، متواصل ، لا يعرف هوادة ولا ينتهى إلى نهاية ..

وفى الصفحات التالية من هذا الكتاب أحب أن أقدم لك صورة من صور الشر إذا ما تملك نفسا وغلب عليها .. فأنت ـــ ولا ريب ـــ تذكر شخصية « فاوست » ، الذى تصوره شاعر ألمانيا الأكبر « جيته » عالما استهواه الجشع والطموح ، فباع نفسه للشيطان ، فى مقابل متاع الحياة الدنيا ونعيمها ..

ولقد سبق « جيته » إلى تصوير الإنسان الذى يبيع روحه للشيطان ، كاتب آخر ، عاش قبله بثلاثة قرون تقريبا .. ذلك هو « كريستوفر مارلو » ، الذى ولد فى (كنتربرى) بإنجلترا ، فى سنة ١٥٦٤ ، وتوفى وهو فى سن مبكرة .. فى التاسعة والعشرين . على أنه ـــ برغم قصر عمره ـــ استطاع أن يبرز فى الشعر الدرامى ، أو الدراما الشعرية .. وأن يقوم بدور كبير فى فرقة « إيرل نوتنجهام المسرحية » .. وكانت الفرق المسرحية ـــ فى ذلك الحين ـــ تنتسب إلى ذوى الجاه ، لتكسب رعايتهم ..

وكان بطل « مارلو » ، الذى باع روحه للشيطان ، يدعى « فاوست » ، وقد حصل على « دكتوراه » فى اللاهوت ، وبز جميع أقرانه ، فنازعته نفسه إلى مجد لا قبل لسواه بالظفر به .. وكان بطل قصة

« جيته » يحمل الاسم ذاته .. « فاوست » !!

بقى أن تعرف أن « مارلو » كان ابن .. إسكافى ، صانع أحذية . أما « جيته » ، فكان رفيع المقام ، ربيب قصور الأمراء .. ومع ذلك ، فقد عالج الاثنان موضوعا واحدا ، مما يدل على أن النزاع بين الخير والشر ، وعلى أن جهاد الشيطان للاستيلاء على عقول البشر وأرواحهم ، موضوع يستهوى خيال الناس ، على اختلاف أوساطهم وبيئاتهم ..

تبدأ المسرحية على النمط الذى كانت تبدأ به المسرحيات فى الماضى .. فإن « الجوقة » تمهد أذهان المتفرجين للأحداث ، فتروى لهم أن « فاوست » ولد لأبوين فقيرين فى مدينة ألمانية تدعى « رودس » ، ودرس اللاهوت فى (وتنبرج) ، حيث أظهر نبوغا ، وتفوق على زملائه ، وظفر دونهم بلقب « دكتور » .. ولكن الغرور تملكه ..

الجوقة : .. وارتفعت أجنحته الشمعية إلى ارتفاع يفوق ما تطيق ، فما لبث الشمع أن ذاب ، وأسقطته السماء من عل ، فتردى فى أعمال الشياطين ، وراح — وقد أتخمته المعرفة — يمارس السحر الأسود اللعين ..

المشهد الأول

(فاوست فى غرفته)

فاوست : لقد أتممت دراسة اللاهوت يا فاوست ، فلتكن كاهنا فى ظاهرك ، ولتبلغ الغاية من كل فن ، ولتعش ولتمت عاكفا على مؤلفات أرسطوطاليس .. أيها التحليل العذب ، أنت

الذى بهرنى واستولى على حواسى !.. « **إذا أحسنت الجدل ، بلغت الغاية من المنطق** » ؟ **فهل إحسان الجدل هو الغاية الرئيسية للمنطق ؟**

ولكن لا يلبث أن يتبين أن الطب أكثر ملاءمة لذكائه الفائق .. ثم يتبين أن الطب لن يستطيع أن يدر عليه الذهب والمال ، وأن يؤتيه مجدا لم يؤته سواه ، إلا إذا استطاع أن يبعث الموتى ، ويخلد البشر ! .. **ومن ثم ، يعدل عن الطب ، ويفكر فى أن يكرس حياته لعلم اللاهوت .** ويعمد إلى الكتاب المقدس فيقرأ فى رسالة بولس إلى أهل رومية :« إن أجرة الخطية هى موت » ..

فاوست : ها !.. ولكن هذا عسير ! (يقرأ فى رسالة يوحنا الأولى) «إن قلنا إنه ليس لنا خطية ، نضل أنفسنا ، وليس الحق فينا » . إذن ، فنحن نخطئ ، وبالتالى نموت . فماذ تسمى هذا ؟.. **المقدر يكون ؟.. وداعا أيها اللاهوت ! إن ما وراء الطبيعة ، وأسفار السحر الأسود أشياء قدسية** .. خطوط ، ودوائر ، وحروف ، وأرقام .. آه ! يا له من عالم تفعمه المكاسب ، والمسرات ، والقوة ، والمجد ، والمقدرة ، ينتظر البارع المجتهد . فجميع الكائنات التى تتحرك بين القطبين ستكون رهن إشارتى !.. إن سلطان الإنسان ينتشر إلى الحد الذى يبلغه عقله . أما الساحر القوى فإنما هو إله قدير ! (**يدخل فاجنر ، فيوجه إليه فاوست الخطاب**) فاجنر .. اذكرنى

عند الصديقين العزيزين : فالدس وكورنيليوس (**وهما ممن تبحروا فى السحر**)واطلب إليهما ـــ مشددا ـــ أن يأتيا لزيارتى .

فاجنر : سأفعل يا سيدى . (**يخرج**) .

فاوست : لكم أنا معتد بهذا السحر ، واثق فيه ! .. فهل أجعل الأرواح تأتينى بما أشتهى ، وتفسر لى كل غامض ، وتؤدى أية مهمة شاقة ، على غير ما أريد ؟ **سأجعلها تطير إلى الهند لإحضار الذهب . وتغوص فى أعماق البحر سعيا وراء اللآلئ . ستقرأ لى غريب الفلسفة ، وتكشف لى أسرار الملوك** ، وتبنى حول ألمانيا سياجا من نحاس ، وتجرى نهر (الراين) حول (وتنبرج) . سأعبئ الجند بالمال الذى تجمعه ، وأطرد من أرضنا أمير بارما ، وأتوج ملكا واحدا على مقاطعاتنا جميعا .. (**يدخل فالدس وكورنيليوس ، فيقول لهما**) أقبلا ، أيها العزيزان ، ولأنعم بالمعرفة فى حضوركما . لقد اقتنعت ، أخيرا ، بأن أمارس السحر ، والفنون الخفية . وما أريد الآن إلا أن تكونا لى مرشدين ، أيها الصديقان .

فالدس : ينبغى أن يكون السحر فى قبر منعزل ، وأن تأخذ معك مؤلفات « بيكون » و « ألبانوس » ، وسفر المزامير ، والعهد الجديد . وغيرها من الأدوات اللازمة .. وسوف نرشدك إلى ما تعمل قبل أن ينتهى هذا اللقاء .

المشــهد الثــانى

(فى المقبرة ، يقبل فاوست يمارس السحر)

فاوست : الآن ، وظل الأرض ينسحب من الجنوب ، وينتشر الظلمة فى السماء ، فلتشرع ، يا فاوست ، فى رقيتك . ولتدع الشياطين إلى طاعتك . فى هذه الدائرة اسم يهوه — متقاطعة حروفه — وأسماء القديسين ، وأشكال الكواكب ، والبروج . وكل هذه ستقسر الأرواح على الظهور ، فلا تخف ، وكن حازما ، وحقق غاية ما يستطيعه السحر! (**ويقرأ الرقية ، فلا يلبث أن يظهر مفيستو**) ارجع ، وغير هيئتك ، فأنت — هكذا — أقبح من أن تكون فى خدمتى ! (**يخرج مفيستو**) أرى أن لرقيتى سلطانا . فكيف لا أكون خبيرا بهذا الفن ؟ ولكم هو لين العريكة — مفيستو ، هذا — ومطواع ، ومتواضع !

مفيستو : (**عائدا**) والآن يا فاوست ، ماذا تريدنى أن أفعل ؟

فاوست : أريدك أن تكون بجانبى ما حييت ، وأن تفعل ما آمرك به !

مفيستو : إننى أخدم لوسيفار العظيم ، ولا أتبعك إلا بإذنه !

فاوست : أوَ لم يكلفك بالظهور أمامى ؟.. ألم تظهرك تعاويذى ؟ .. تكلم !

مفيستو : إننا ، عندما نسمع أحدا يجدف على الله ، وينكر الكتب المقدسة ، نهرع إليه على أمل أن نغنم روحه السامى .

فاوست : خبرنى بما يكونه سيدك لوسيفار .

مفيستو : إنه السيد المطاع ، لكافة الشياطين .

فاوست : ألم يكن ملاكا من قبل ؟.. فكيف أصبح رئيسا للشياطين ؟

مفيستو : آه .. بالكبرياء والكفران !

فاوست : وما شأنكم ، أنتم الذين تعيشون مع لوسيفار ؟

مفيستو : إننا أرواح شقية سقطت من لوسيفار . بعد أن تآمرت معه على ربنا ، فحق عليها العذاب الأبدى مع لوسيفار !

فاوست : فلتنقل الآن هذه الأنباء إلى لوسيفار : **إن فاوست ــ وقد جر على نفسه الهلاك الأبدى ــ يقدم إليه روحه ، شريطة أن تتيح له ــ فى أربعة وعشرين عاما ــ أن يعرف كل متعة** .. هلم ، عد إلى لوسيفار القدير ، وقابلنى بعدئذ فى غرفتى ، عندما ينتصف الليل ، لتخبرنى بما يراه سيدك !

المشــهد الثــالث

(فى منزل فاوست)

فاوست : الآن يا فاوست ، وقد حقت عليك اللعنة ، وفقدت الأمل فى الخلاص ، فما يجديك أن تفكر فى الله ، وفى السماء ؟!.. لا تنظر إلى الوراء ، وكن ثابت العزم !.. تعال يا مفيستو ، وهات أنباء سعيدة ، من لوسيفار العظيم .. أليس الليل قد انتصف ؟.. تعال يا مفيستو ، يا عزيزى مفيستو ! (**يدخل مفيستو**)ماذ قال لك سيدك لوسيفار ؟

مفيستو : سأخدمك طالما أنت حى ، لكنك ستبتاع خدمتى بروحك .

فاوست : لقد وهبتك إياها ، منذ الآن !

مفيستو : لكن الهبة يجب أن تكون فى وصية مكتوبة بدمك !.. فلتجرح ذراعك ، ولتختم على روحك ، حتى يعلنها لوسيفار ملكا خاصا له ، فى ذات يوم . ولتكن ـــ بعد هذا ـــ قديرا مثل لوسيفار !

فاوست : (**يجرح ذراعه**)إننى ـــ فى حبك ـــ أجرح ذراعى . وبدمى أؤكد أن روحى ملك للوسيفار العظيم ! انظر إلى هذا الدم الذى يتساقط من ذراعى ، واعتبره دليلا على

.. صدق نيتى **(يكتب وثيقة نزوله عن روحه للوسيفار)** ولكن ، ما هذه الكتابة على ذراعى ؟ : « رجل هارب » ؟!.. وأين أستطيع الهرب ؟ فلئن لجأت إلى الله ، دفعنى إلى قرار الجحيم !.. ولكن فاوست لن يهرب ، على أى حال !

مفيستو : **(لنفسه)** : سأحضر له شيئا يسليه ! **(يخرج ، ثم يعود مع زمرة من الشياطين التى تقدم إلى فاوست تيجانا ، وطيالس ، وترقص .. ثم تخرج)** .

فاوست : استلم ، يا مفيستو هذه الوثيقة . إن فيها تنازلا عن جسدى ، وروحى . ولكنها مشروطة بتنفيذ الأمور التى اتفقنا عليها .. اسمعنى ، وأنا أتلوها عليك **(يقرأ)** :

« بناء على هذه الشروط : **أولا** ـــ يصبح فاوست روحا فى شكله ، وطبيعته .. **ثانيا** ـــ يكون مفيستو خادما له ، مطيعا لأوامره .. **ثالثا** ـــ يحقق له مفيستو كل ما يبتغيه .. **رابعا** ـــ يكون مفيستو دائما فى غرفته ، غير ظاهر للعيان .. **أخيرا** ـــ يظهر مفيستو للمدعو جون فاوست ، فى كل حين ، وفى أى شكل ، أو هيئة يطلبها .. **أنزل ـــ أنا جون فاوست ، دكتور من وتنبرج ـــ بموجب هذه الوثيقة ، عن جسدى ، وروحى ، للوسيفار ، ووزيره مفيستو** . وبعد أربعة وعشرين عاما ـــ أى بعد موتى ـــ يكون لهما الحق (وفقا للشروط المكتوبة هنا ، فى حرية ، ودون ضغط أو إكراه) فى نقلى : « جسدا وروحا ولحما ، ودما ، إلى مستقرهما ، حيث كان » .

مفيستو : الآن ، يا فاوست ، اطلب ما تريد !

فاوست : هات لى زوجة !.. ولتكن أجمل فتاة فى ألمانيا ، فإنى أحب النساء ، وأشتهيهن ، ولا أستطيع العيش بلا زوجة .

مفيستو : زوجة !! أرجوك ، يا فاوست .. لا تفكر فى الزواج !

فاوست : بل أرجوك ، يا مفيستو : زوجنى !

(يخرج ، ثم يعود ومعه شيطانة . ولكن فاوست يكره شكلها) .

مفيستو : ما الزواج ، يا فاوست ، إلا لعبة تقليدية .. فإذا كنت تحبنى لا تذكره ، بعد الآن . وسوف أدعو لك أجمل الغوانى ، وأقودهن إلى فراشك ! خذ هذا الكتـــاب ، واقرأه جيدا ! (**يعطيه كتابا**) إن ترديد هذه السطور يجيئك بالذهب ، ورسم هذه الدائرة يثير الزوابع والرعود والبروق .. فإذا تلوت هذه الجمله ، ثلاث مرات ، أقبلت فرقة من الجن ، مدججة بالسلاح ، مستعدة للإجهاز على من تشاء !

المشـــهد الرابـع

(فى منزل فاوست .. يدخل فاوست ومفيستو)

فاوست : إننى حين أنظر إلى السماء . يتملكنى الندم . وألعنك ، أيها الشرير ، إذ حرمتنى تلك النعم !

مفيستو : ولم ، يا فاوست ؟.. هل تعتقد أن السماء شىء عظيم ؟

لقد جعلت لينعم فيها الإنسان ، إذن فالإنسان أعظم منها .

فاوست : ما دامت قد جعلت للإنسان ، فقد جعلت لى .. سأطرح هذا السحر ، وأعلن التوبة .. لقد أردت أن أقتل نفسى منذ أمد طويل ، إلا أن الأمل العذب كان ينتصر على اليأس العميق !.. أيها المسيح ، يا مخلص .. أنقذ روح فاوست المعذب ! (**يدخل لوسيفار ، وبعلزبوب**) .

لوسيفار : لن ينقذ المسيح روحك ، لأنه عادل .. وروحك لم تعد تعنى أحدا سواى !

فاوست : واحسرتاه !.. ومن أنت أيها الكائن المرعب ؟

لوسيفار : أنا لوسيفار ، وهذا نائبى فى مملكة الجحيم .

بعلزبوب : لقد جئنا من الجحيم لكى نسرى عنك . وسوف تشاهد الآن « الخطايا السبع المميتة » ، فى أشكالها الحقيقية ، (**تدخل الخطايا السبع المميتة**) سلها عن أسمائها العديدة ، وأوصافها ، وطبائعها .

فاوست : من أنت ، أيتها الأولى ؟

الكبرياء : أنا الكبرياء ، أزدرى أن يكون لى أب أو أم . وأنا كبرغوث أوفيد ، أندس فى أردان كل امرأة . وقد أعتلى رأسها شعرا مستعارا ، أو أحلى جيدها قلادة ذهبية ، أو أقبل ثغرها مروحة من الريش ، أو احتويها

معطفا ، وأفعل — بعد ذلك — ما أريد !

فاوست : وأنت ، أيتها الثانية ؟

الطمع : أنا الطمع ! خلفنى عجوز جشع ، فى حقيبة رثة ، ولو كان لأمنيتى أن تتحقق ، لاشتهيت أن يتحول هذا البيت وأهله إلى ذهب ! وحينئذ أدفنك فى صندوق الجميل !

فاوست : وما أنت ، أيتها الثالثة ؟

الغضب : أنا الغضبُ .. ليس لى أم ولا أب ، لكنى قفزت من فم أسد ، ولمّا أبلغ نصف الساعة من عمرى . ومن ذلك الحين أذرع الدنيا طولا وعرضا ، ومعى غمد خناجرى ، وأمزق لحمى عندما لا أجد من أطعنه !.. لقد كان مولدى فى جهنم ، ولتبحثوا ، فربما كان أحدكم لى أبا !

فاوست : وأنت ، أيتها الرابعة ؟

الحسد : أنا الحسد .. أبى ينظف المداخن ، وأمى تبيع المحار . أجهل القراءة فأرجو أن تحرق جميع الكتب .. ويضمر جسدى عندما أرى الآخرين يأكلون ، فلتحل المجاعة فى أنحاء الأرض ، حتى يموتوا جميعا ، وأبقى أنا وحدى !..

فاوست : اذهبى ، أيتها الزنيمة الحسود !.. وما أنت أيتها الخامسة ؟

الشره : أنا الشره .. مات أبواى ولم يتركا لى درهما ، بل غرفة خالية . وما يشبعنى فى اليوم إلا ثلاثون أكلة رئيسية ، وعشر وجبات خفيفة !.. لإسكات المعدة ! أوه ! إننى من أسرة ملكية !

(تمضى تعدد له أهلها من أصناف الطعام والشراب ، فيطردها)

فاوست : وما أنت أيتها السادسة ؟

الكسل : أنا الكسل .. ولدت على شاطئ مشمس ، وبقيت راقدة حتى هذه الساعة . ولقد آذيتمونى جدا بإحضارى من هناك .. دعوا الشر والفجور يحملانى إلى حيث كنت ، فلن أقول كلمة أخرى ، ولو أعطيتمونى فدية ملك !

فاوست : وما أنت أيتها الوقحة السابعة ؟

الفجور : أنا من تشتهى أن تنهش قطعةً صغيرة من اللحم النيىء ، وتفضلها على سمكة كبيرة مطهوة .. وأول حرف من اسمى ، هو : الفاء !

لوسيفار : اذهبن إلى الجحيم ! (**تخرج الخطايا**) ما رأيك يا فاوست ؟

فاوست : إننى راض كل الرضا .

لوسيفار : فى جهنم كل ما يدعو إلى السرور !

فاوست : آه ! لكم يسعدنى أن أرى جهنم ، ثم أعود !

لوسيفار : ستفعل . وسوف أبعث من يطلبك فى منتصف الليل . وداعا يا فاوست ، ولتذكر الشيطان دائما !

ويخرجون ، فتدخل الجوقة لتروى لنا ما حدث بعد هذا الاجتماع : ارتقى « فاوست » السماء فرأى الكواكب والنجوم ، وانطلق بين الشرق والغرب فى سرعة مذهلة .. ولم يكد يعود إلى الأرض — بعد ثمانية أيام — حتى انطلق فى أرجائها .. ويصل إلى (روما) ، حيث

كانت الاحتفالات بعيد القديس بطرس ، وحيث كان مقدرا أن يرى « البابا » .

المشـــهد الخامس

(فى قصر البابا ، وقد أعدت وليمة كبرى)

فاوست : كلا ، يا مفيستو ، انتظر وحقق رغبتى !.. أريـد أن أستخفى ، حتى يرى ذلك البابا المتعجرف ، ما أتصف به من براعة !

مفيستو : ليكن ما تشاء ، يا فاوست !.. اركع على ركبتيك !.. إنى أضع على رأسك يدى ، وأسحرك بهذه العصا . هلم ، تمنطق بهذا الحزام ، ثم اختف عن الناظرين !

(يدخل البابا وحاشيته) .

البابا : هلم إلى المائدة ، يا كبير أساقفة ريمس !.. يا لـورد رايموند ، مد يدك !.. إنى أشكر أسقف ميلان على هذا الطبق النادر !

فاوست : شكرا لك ، يا سيدى ! **(يخطف الطبق)**

البابا : من أخذ اللحم من أمامى ؟.. يا عزيزى كبير الأساقفة ، هذا طبق شهى أهدانيه كردينال فلورانسا .

فاوست : سآكله أيضا ! **(يخطف الطبق)**

البابا : عجبى لهؤلاء الأوغاد الذين يسيئون خدمتنا !.. إلىّ ببعض

الخمر !.. يا لورد رايموند ، إنى أشرب نخب قداستك . (**ولكن فاوست يختطف القدح**) وقدحى يختفى أيضا ؟ ابحثوا عمن ارتكب هذه الجريمة !

أسقف : أعتقد أنها روح قد خرجت من المطهر ، وجاءت تطلب العفو .

البابا : قد يكون هذا .. فليأت القساوسة ، ليرتلوا شيئا يهدئ من ثورة هذه الروح الشاغبة ! (**يخرجون**) .

المشهد السادس

(**بلاط الإمبراطور فى إنسبروك . يدخل مارتينو وفريدريك**)

مارتينو : انظر يا فريدريك فى كل مكان ، واطمئن إلى كل شىء ، فصاحب الجلالة قادم .

فريدريك : ولكن أين البطريرك « برونو » الذى أنقذه « فاوست » من قبضة البابا ، وأعاده من روما على ظهر عفريت ؟.. ألن يكون فى صحبة الإمبراطور ؟

مارتينو : أوه ، بلى !.. ويرافقه ـــ أيضا ـــ ذلك الساحر الألمانى الذى سيقوم أمام الإمبراطور بتحضير أرواح أسلافه .

فريدريك : وأين بنفوليو ؟

مارتينو : إنه يغط فى نومه . فلقد أسرف بالأمس فى شرب الأنخاب !

(**ينظر إلى نافذة بنفوليو ويناديه ، فيطل عليه هذا**)

بنفوليو : أى شيطان يثيركما ؟

مارتينو : اخفض صوتك ، حتى لا يسمعك الشيطان ! فلقد جاء فاوست إلى القصر . وفى أعقابه ألف عفريت مستعدين لتلبية أوامره !

(موسيقى .. يدخل شارل إمبراطور الألمان ، وبرونو ، ودوق ساكسونيا ، وفاوست ، ومفيستو ، وفريدريك ، ومارتينو ، والحرس)

الإمبراطور : مرحبا بك فى بلاطنا ، يا فاوست . إننى كثيرا ما أجلس فى غرفتى ، وحيدا . فأذكر ما كان عليه أسلافى من الجد ، وكيف أثروا ، وأخضعوا الممالك ، وحققوا من جلائل الأعمال ما أخشى ألا أحققه أنا وخلفائى . ومن أولئك الذين أذكرهم الإسكندر الأكبر .. فلو استطعت بسحرك أن تصعده من أغوار الأبد ، وأن تحضر معه حبيبته الجميلة ..

فاوست : ستراهما الآن ، يا صاحب الجلالة . هلم ، يا مفيستو .

بنفوليو : **(من نافذته)** حسنا ، يا سيدى الدكتور . لكننى سأعود إلى فراشى إذا لم تعد شياطينك على جناح السرعة ، وسأموت غيظا إذا تبين لى أننى وقفت هذا الوقت كله ، نعسان متثائبا ، فى غير طائل !

فاوست : لسوف تشعر — أولا — بشىء معين . إذا لم يخذلنى سحرى ، فإننى سأغرس قرنين فى رأسك .

(موسيقى . يدخل الإسكندر من أحد الأبواب ، ويدخل داريوس ــ ملك الفرس ــ من الباب الآخر ، فيتلاقيان . الإسكندر يصرع داريوس ويأخذ تاجه . وفى خروجه يلتقي بحبيبته فيعانقها ، ويضع على رأسها التاج ، ثم يتقهقران ــ معا ــ ويحييان الإمبراطور الذى يترك مجلسه ، ويحاول أن يعانقهما ، فيمنعه فاوست ، ويأمر الأرواح بالخروج)

فاوست : (للإمبراطور) هل ترى ، يا مولاى ، أى حيوان غريب يطل هناك ، من تلك النافذة ؟

الإمبراطور : أوه ! انظر يا دوق ساكسونى ! قرنان طويلان ، فى رأس بنفوليو !

ساكسونى : ماذا ! هل هو نائم أم ميت ؟

فاوست : إنه نائم ، ولكنه لا يحلم بقرنيه .

(يناديه الإمبراطور ليوقظه ، فيسبه بنفوليو ، ثم ينتبه إلى أنه الإمبراطور)

بنفوليو : الإمبراطور !.. أين ؟ أواه !.. إن رأسى يؤلمنى !

الإمبراطور : لا بأس على رأسك ، فإنه مدعم بما فيه الكفاية . تحسس قرنيك !

فاوست : (لبنفوليو) ما رأيك الآن ، أيها الفارس ؟ خبئ رأسك ولا تجعل من نفسك هزأة العالمين ! **(يسبه بنفوليو ، فيهدده باستحضار قطيع من كلاب ضارية ، تمزقه بأنيابها)**

بنفوليو : تمهل ، تمهل !.. يا للعنة !.. اشفع لى يا مولاى ، فما أستطيع أن أحتمل هذا العذاب !

الإمبراطور : إذن ، أسألك يا عزيزى أن ترفع قرنيه ، فقد ندم بما فيه الكفاية . (**فاوست يأمر مفيستو فيرفع القرنين**)

المشــهد الســابع

(**فى الغابة . يدخل بنفوليو ، ومارتينو ، وفريدريك ، وأتباع**)

مارتينو : يا عزيزى بنفوليو ، أقصِ عن رأسك فكرة الثأر من الساحر !

بنفوليو : بل اتركونى أنتم ، فإنكم لا تحبوننى ! أأدعَه يهزأ بى ويجعلنى موضع السخرية لدى كل سائس خيل؟ هيهات أن تغمض لى عين حتى أقتل ذلك الساحر بحد سيفى .

فريدريك : سنبقى معك ، مهما يحدث . وسنقتله إذا جاء من هذا الطريق .

بنفوليو : هلم إلى المقبرة إذن ، وأعدوا كمينا وراء الشجر .

(**يدخل فاوست برأس زائف ، فيضربه .. ويسقط فاوست على الأرض**)

مارتينو : اضرب بيد قوية ! (**بنفوليو يقطع رأس فاوست**)

فريدريك : فلنفكر فى عار جديد نلحقه باسمه البغيض !

بنفوليو : أولا ، سأدق فى رأسه قرنين مشعبين ، ثم أعلقه منهما بالنافذة ، التى سبق فعلقنى بها !

مارتينو : وفيم نستخدم لحيته ؟

بنفوليو : نبيعها لمنظف المداخن !

(وفيما هم يتدبرون ضاحكين ما يفعلونه بجثته ، ينهض فاوست)

بنفوليو : اللعنة ! لقد بعث الشيطان من موته !

فريدريك : رد إليه رأسه ، بحق الله !

فاوست : ألا تعلمون أيها الأوغاد ، إن عمرى محدود بأربعة وعشرين عاما ؟.. فلو مزقتم جسدى ، أو طحنتم لحمى وعظمى ، فإننى أنهض ثانية ، وأعود رجلا حيا ، خاليا من كل ضرر !ولكن ، لم لا أثأر الآن منكم ؟

(يدعو الشياطين ، ويأمرهم أن يمثلوا أشنع تمثيل بالثلاثة)

المشــهد الثـامن

(فى منزل فاوست)

فاوست : أين أنت يا فاوست ؟!.. أيها التعيس ، ماذا فعلت ؟ إنك ملعون ! ملعون !.. ماذا أفعل حتى أنجو من الموت ؟

مفيستو : أيها الخائن ! إنى أعتقل روحك ما دمت تخرج على طاعة مولاى !..

فاوست : أيها العزيز مفيستو ، فلتبتهل إلى مولاك ليغفر لى هذا الذنب . وسوف أؤكد بدمى ما سبق أن وعدت به لوسيفار . (**يجرح ذراعه ، ويكتب على ورقة بدمه**) . والآن ، دعنى أسألك شيئا واحدا يشتهيه قلبى : إنى أريد أن أتخذ خليلة لى ، هيلين الجميلة .. تلك التى سيطهرنى عناقها العذب من هاتيك الأفكار التى أوشكت أن تحملنى على نكث عهدى ، وإنكار القسم الذى أقسمته للوسيفار . (**تظهر هيلين ، فتعبر المسرح بين اثنين من آلهة حب ، مجنحين**) أهذا هو الوجه الجميل الذى أجرى ألف سفينة على الماء وأرق أبراج طروادة ؟.. يا هيلين الجميلة ، خلدينى بقبلة ! (**يقبلها**) إن شفتيها تمتصان روحى ! تعالى ، يا هيلين ، تعالى ! ردى إلى نفسى ! ها هنا مثواى ومستقرى ! فالنعيم فى شفتيك .

المشهد التاسع

(نفس المكان ، فى نهاية الأربعة والعشرين عاما — رعد قاصف — يدخل لوسيفار ، وبعلزبوب ، ومفيستو) .

لوسيفار : لقد جئنا من الجحيم ، نستطلع أحوال الرعية : أولئك

الذين تحركهم الخطيئة ، وتجعلهم أبناء للجحيم ، وعلى رأسهم : أنت ، يا فاوست !.. لقد حان الوقت الذى تسدد فيه دينك !

مفيستو : فى هذه الليلة المدلهمة ، وفى هذه الغرفة ! **(يدخل فاوست وفاجنر)**

فاوست : فاجنر ، لقد قرأت وصيتى ، فما رأيك فيها ؟

فاجنر : مدهشة ، يا سيدى ! وإنى لفى ولاء مؤكد ، أكرس لك عمرى ، وخدمتى .

فاوست : شكرا جزيلا لك ، يا فاجنر . **(يدخل ثلاثة من الطلبة ، ويخرج فاجنر)**

الأول : تلوح متغيرا ، أيها الأستاذ المبجل .

فاوست : أواه ، يا أصدقائى !.. وددت لو عشت معكم الدهر كله ، لكننى سأموت هذه الليلة !.. انظروا ! ألا يأتى ؟.. ألا يأتى ؟

الثانى : من يا فاوست ؟

الثالث : أظنه مريضا من جراء الوحدة !

الأول : فلنحضر له أطباء .. إنما هو انحراف بسيط ..

فاوست : إنما هو انحراف الخطيئة التى سممت جسدى وروحى .

الثانى : توجه إلى السماء ، يا فاوست ، واذكر أن رحمة الله واسعة !

فاوست : ولكن كفران « فاوست » لا يغتفر .. أواه يا إلٰهى !..

.. وددت لو أبكى ، ولكن الشيطان يجمد الدمع فى عينى !.. إنهما يمسكان لسانى ، ويقيدان ذراعى فلا أرفعهما بالضراعة !

الجميع : من هما يا فاوست ؟

فاوست : لوسيفار ، ومفيستو !.. لقد وهبتهما روحى ، مقابل سحرى .. وقد حان الأجل ، وعما قليل يجئ الشيطان ليأخذنى .. اخرجوا ، واتركونى ، وإلا هلكتم معى !

الثالث : (لزميليه) : فلننتقل إلى غرفة مجاورة ، لنصلى من أجله !

فاوست : نعم ، صلوا من أجلى .. ومهما تسمعوا من ضجيج ، فلا تعودوا لأنه ما من شىء سينقذنى !

(يخرج الطلاب ، وتدق الساعة الحادية عشرة)

مفيستو : نعم ، يا فاوست .. ما دمت فقدت الرجاء فى رحمة السماء ، فليعمر اليأس قلبك ، ولتفكر فى الجحيم وحده ، لأنه سيكون مثواك المخلد !

فاوست : أيها الشيطان الخبيث !.. إنه إغراؤك الذى حرمنى السعادة الأبدية ..

مفيستو : أعترف بهذا ، وأنا جذلان !

(يخرج مفيستو . ويدخل ملاك الخير ، وملاك الشر ، من بابين مختلفين)

ملاك الخير : واأسفاه !.. لو كنت استمعت لى يا فاوست ،

لأتيحت لك أفراح لا تقدر . ولكنك أحببت العالم أكثر مما أحببت السماء ! (**موسيقى ، بينما يهبط عرش الذين كتبت لهم الجنة**) لو أنك اتجهت إلى السماء ، لما كان للجحيم أو الشيطان سلطان عليك !.. انظر أى مجد رائع كان ينتظرك حين تجلس على هذا العرش مع القديسين .. والآن ينبغى أن يتركك ملكك الحارس ، فأبواب الجحيم قد انفتحت ، لتنطبق عليك ! (**يخرج ، ويظهر الجحيم**) .

ملاك الشر : دع الآن عينيك المذعورتين تحدقان فى مستقر العذاب الأبدى !.. انظر : هنالك يدفع الشيطان الأرواح الملعونة بالأسياخ الملتهبة ، وتتقلب أجساد الخاطئين فى الرصاص المصهور ، والفحم المشتعل .. أما أولئك الذين يلتهمون الجمر فهم المتهالكون على اللذة ، الضاحكون من الفقير .. ولكن هذا كله لا شيء ، إذا قيس بما سترى من صنوف العذاب ! (**يخرج**)

فاوست : واحسرتاه ، يا فاوست !.. لم تعد تملك إلا ساعة واحدة من العمر ، ثم تمضى إلى عذاب لا ينتهى ! قف أيها الزمن ، ولا تنتصف يا ليل ، وأشرق أيتها الشمس ، فى نهار لا يزول !.. اجعلى هذه الساعة عاما كاملا ، أو شهرا ، أو أسبوعا ، أو يوما واحدا ، حتى أتوب وأستنقذ روحى ! .. أواه ، سأقفز إليك ،

يارب ، فمنذا الذى يجذبنى إلى أسفل ؟!.. انظر يا فاوست !.. إن دم المسيح ينسكب من السماء ، وقطرة واحدة منه تنقذك !.. يا مخلص يسوع !.. لقد ذكرت المسيح ، فأرجو ألا يمزقنى الشيطان !.. أنقذنى يا لوسيفار !.. اسقطى فوق أيتها الجبال ، وخبئينى من غضب الإلٰه !.. انشقى أيتها الأرض ، وابتلعينى !.. أيتها النجوم ، ارفعينى كسحابة قاتمة ، فأختفى بين الغيوم ! (**منتصف الثانية عشرة**) لقد مر نصف الساعة ، وسوف تنقضى الساعة كلها وشيكا !.. يا إلٰهى . إذا لم تغفر لى ، فضع حدا لآلامى !.. دعنى أعيش فى الجحيم ألف سنة ، ومائة ألف ، وأنقذنى فى النهاية !.. ولكن ، ما من نهاية للأرواح الملعونة ! لماذا لم أكن مخلوقا بلا روح ؟.. ولماذا أكون مخلدا؟.. أواه ، لو كان تناسخ الأرواح حقا ، لانسلخت هذه الروح منى ، وصرت حيوانا !.. فالحيوان هو السعيد ، لأنه ما إن يموت حتى يتحلل فى العناصر ! (**تدق الساعة الثانية عشرة**) إنها تدق !.. إنها تدق !.. تحول — أيها الجسد — إلى هواء (**رعد وبرق**) تحولى — أيتها الروح — إلى قطرات من الماء واسقطى فى اليم ، واختفى إلى الأبد ! (**يدخل الشياطين**) إلٰهى ، إلٰهى ، انظر إلى بعين

الرحمة !.. لا تتثاءب ، أيها الجحيم البغيض !.. لا تأت يا لوسيفار ! سأحرق كتبى !.. أواه يا مفيستو ! (**يأخذه الشياطين ويخرجون . ثم يدخل الطلبة**)

الأول : تعاليا نطمئن على فاوست ، بعد هذه الليلة الرهيبة التى لم تشهد الدنيا لها مثيلا ، والتى تردد فيها من الصراخ المفزع ما لم تسمعه أذن قط !

الثانى : عونك أيتها السماء .. انظر ، ها هى دى أشلاؤه ، قد مزقتها يد الموت إربا !

الثالث : بل مزقتها الشياطين التى كان يتبعها !

الثانى : لئن كانت نهاية فاوست مما يأسف له كل مؤمن ، فإنه قد كان رجلا عالما ، وكان موضع التجلة والاحترام ، فى معاهدنا .. وإذن ، سنضم أشلاءه الممزقة فى قبر يليق به ، وسيشهد الطلاب — فى ملابس الحداد — مراسم دفنه الأليم ! (**يخرجون — وتدخل الجوقة**)

الجوقة : وها قد انكسر الفرع الذى كان ينبغى أن ينمو فى استقامة ، واحترق غصن الغار الذى كان ينمو فى داخل ذلك الرجل الأريب .. لقد مضى فاوست ، فلتنظروا إلى سقوطه ، ولتتأملوا مصيره الذى ينبغى أن يتدبره الحكماء ، **لا لشىء إلا ليستنكروا تلك النزعات المحرمة التى تغرى أصحاب المواهب النادرة بأن يمارسوا من الأعمال أكثر مما تسمح به السماء .**


EUGENE
ONEGIN
By
A.PUSHKIN
Я къ вамъ пишу.—
чего же болѣ?
Что я могу
еще сказать?
يوجين أونيجين
من روائع المسرح الغنائي
للشاعر الروسي الأشهر
الكسندر بوشكين

هــذه المأســاة ..

عزيزى القارئ ..

● فى الفصل التاسع من ملحمة « دكتور جيفاجو » ، التى قدمت لك ترجمتها الكاملة فى غير هذه السلسلة ، أشار « باسترناك » إلى مأساة « يوجين أونيجين » فى ثلاثة مواضع متلاحقة ، ضمن يوميات بطل الملحمة « يورى جيفاجو » .. ففى صفحة ـــــ (من المجلد الثانى) كتب فى يومياته : « وهكذا قرأنا مرارا وتكرار كـتب « الحرب والسلام » لتولستوى ، و « يوجين أونيجن » ، وغيرها من روائـع بوشكين .. » .

وفى صفحة ٤٣٦ ، كتب مرة أخرى : « .. سنظل نعاود قراءة « يوجين أونيجن » إلى ما لا نهاية ..» .

وفى صفحة ٤٤٣ ، كتب مرة ثالثة : « إن الفصل السابع مـن « يوجين أونيجن » يصف بيت « أونيجن » وقد بدا موحشا لغيابه ، وقبر « لينسكى » على ضفة الغدير ، عند أسفل التل ، والبلبل ـــ عاشق الربيع ـــ يغنى طيلة الليل .. والوردة البرية تتفتح .. إلخ » .

فما هى هـذه التراجيديا الخالـدة لبوشكين ، التـى أشاد بها « باسترناك » فى ثلاث إشارات متتابعة من « دكتور جيفاجو » ، والتى اقتبست منها أوبرا غنائية تمثل على مسارح العالم منذ عشرات السنين ؟

إليك قصتها ، ألخصها لك فيما يلى :

« ١ »

● تبدأالقصة فإذا نحن فى إحدى أمسيات الخريف الدافئة ، ذات عام فى أوائل القرن الماضى ، وقد جلست « مدام لاريتا » — وهى امرأة غنية من صاحبات الأراضى فى روسيا القديمة — فى حديقة منزلها الجميل ، منهمكة فى تقشير بعض الفاكهة .. ومن نوافذ البيت المفتوحة صافحت سمعها أنغام أغنية عذبة تغنيها ابنتاها الجميلتان « أولجا » و « تاتيانا » .. فامتلأ قلب الأم وهى تصغى إليهما بالذكريات الحلوة لأيام شبابها الباكر ، حين كانت تتغنى مثلهما بنفس هذه الأغنية !

وأقبل رهط من القرويين المرحين يحملون حزم الحنطة ويقدمونها إلى مدام لاريتا ، فقد كان اليوم آخر أيام الحصاد ، ومن ثم جاءوا يضعون تيجانهم التقليدية تحت قدمى ربة الضيعة المحبوبة .. فاستقبلتهم هى بالترحيب والعطف الكريم ، ودعتهم كى يغنوا ويرقصوا أمامها ، ويتناولوا من المشروبات المنعشة التى أمرت بأن تعد لهم .. فانخرط الشبان والفتيات فى رقصة ريفية فوق أرض الحديقة وراحوا يغنون أغنية الحصاد المرحة ، رغم التعب الذى كانوا يعانونه بعد مجهود العمل طيلة اليوم .. فلم تكد الفتاتان أولجا وتاتيانا تسمعانهم حتى خرجتا إلى الحديقة ووقفتا بجوار أمهما ترقبان الرقص والضحك والصخب بشغف ملحوظ ..

وكانت الفتاتان رغم جمال كليهما تختلفان الواحدة عن الأخرى أكبر الاختلاف : فالكبرى — أولجا — مرحة طائشة تحب اللهو والصخب

.. والثانية — تاتيانا — حالمة ، وهى ، منطوية على نفسها ، لا تأبه كثيرا للهو الشباب المألوف ، بل تفضل عليه أن تقرأ كتابا فى عزلتها .. أو تحلم فى يقظتها !

وحين فرغ القرويون من رقصتهم ، اصطفوا من جديد تأهبا للانصراف من حضرة سيدتهم المضيافة .. وبعد لحظات من انصرافهم ، وقفت أمام الباب عربة فاخرة هبط منها شابان من نبلاء المنطقة المجاورة ، أحدهما « فلاديمير لينسكى » خطيب أولجا ، والآخر صديقه « يوجين أونيجن » ، الذى كان ما يزال مجهولا من جانب مدام لاريتا وابنتيها ، رغم امتلاكه أرضا فى نفس المنطقة ..

ولم تكد تاتيانا الخجول الحيية تلمح الشاب الغريب حتى تحركت تريد الانسحاب من المكان ، لولا أن أمها احتجزتها .. وبعد برهة أقبل لينسكى يحيى النساء الثلاث ويقدم لهن صديقه .

وكان أونيجن شابا أنيقا ذا شخصية جذابة وخبرة بالحياة ، فلم تكد تاتيانا ترمقه بنظراتها المختلسة ، فى خجل ، حتى جذبها مظهره ، فأحست أنه الصورة الحية لفتى أحلامها !.. وشعر أونيجن بدوره بميل نحو الفتاة الهادئة المنطوية التى تلائم مزاجه أكثر من أختها الضاحكة الصاخبة .. وهكذا لم تمض برهة حتى اشتبك الاثنان فى الحديث ، ثم انصرفا عن المكان ليقوما بجولة فى أرجاء الحديقة .. تاركين لينسكى وخطيبته يشيدان قصور الأمانى العذبة فى خلوة كاملة ..

وحين ارتفع صوت الأم تنادى الفريقين إلى داخل البيت لتناول العشاء ، لبى الخطيبان دعوتها أولا ، **ثم مرقت تاتيانا وأونيجن من**

ظلام الحديقة فى أعقابهما وهما منهمكان فى الحديث ما يزالان .. وكانت تاتيانا — برغم خجلها الفطرى — قد وجدت متعة فى رفقة يوجين ، الذى فتنها بشخصيته إلى أقصى حد ، وإن كان حديثه قد أظهره فى صورة الساخر الذى مل الحياة وكفر بأخلاق البشر ..

وهكذا رقص قلب تاتيانا بين ضلوعها منتشيا بثمل غريب لا يقاوم ، وازدادت عاطفتها المتأججة حدة وعنفا كلما تقدم المساء ، فلما أوت إلى مخدعها آخر الأمر كان انفعالها أشد وأقوى من أن تستطيع قمعه !.. وأحست مربيتها العجوز « فيلبينا » بما يعتمل فى أعماق العذراء الغريرة ، فحاولت أن تهدئ من انفعالها جهد طاقتها ، لكن مهمتها كانت أعسر مما حسبت .. بل لقد أصرت الفتاة على أن تروى لها فيلبينا تجاربها الغرامية الخاصة ، وأبت أن تحول أفكارها عن هذا الموضوع الشائق !.. ورغم ذلك فعندما رضخت المربية العجوز لإلحاح تاتيانا ، لم تصغ هذه إلى قصتها إلا لحظات ، ثم شردت فى وديانها الخاصة وراء عواطفها المتضاربة ، حتى فرغت فيليبينا من روايتها فطلبت إليها الفتاة أن تحضر لها أدوات الكتابة ثم تتركها لشأنها ..!

وفعلت المربية ما طلبته منها تاتيانا ، ثم طبعت على جبينها فى حنان قبلة المساء وغادرت الغرفة ، وهى تأمل أن يقوى النعاس والأحلام على إعادة الفتاة الغريرة إلى هدوئها المألوف فى الصباح ..

لكن النعاس كان أبعد الأمور عن ذهن تاتيانا المبلبل .. فإنها حين عجزت عن قمع عاطفتها المضطربة ، اعتزمت أن تكتب خطابا إلى يوجين أونيجن ، تبوح له فيه بحبها العميق الذى باتت تكنه له .. وتسأله

أن يمنحها الفرصة كى تلقاه على انفراد فى الأرض المجاورة فى اليوم التالى !.. وقد ظلت المسكينة وقتا طويلا ـ أثناء كتابة الخطاب ـ نهبا للأفكار المتضاربة والصراع العنيف العقيم ، بين حياء العذراء وإجفالها الفطرى ، وبين حبها الوليد وشوقها القوى إلى أن يبادلها الشاب إياه !.. لكن عاطفتها تغلبت فى النهاية على شتى مشاعرها الأخرى ، فتناولت القلم وشرعت تكتب ..

ولكنها ـ حتى بعد أن قر قرارها على المصارحة ـ لم تلبث أن تبينت أن صياغة أفكارها المحمومة على الورق ليست بالمهمة السهلة ، وإنما هى مهمة عسيرة جدا .. فمزقت أكثر من ورقة وبذلت أكثر من محاولة ، حتى تم لها ما أرادت ..

.. والليل يزحف على مهل ، وتاتيانا غير ملقية بالا إلى انصرام ساعاته .. حتى بدت فى الأفق تباشير الفجر ، وعندئذ فقط تنبهت الحالمة ، فختمت الخطاب أخيرا ، ووضعته بيد مرتجفة فى ظرف معد لإرساله ..

وكان الخطاب صورة دقيقة لنزعة الفتاة الفطرية ، ينضح كل سطر منه بالسذاجة العذبة التى أوحت بكتابته .. بل كان بمثابة تدفق غير متكلف لطبيعة كريمة سمحة .. أما عمق وعنف العاطفة التى وشى بها فقد كان برهانا على قيمة الهبة التى تجود بها صاحبته : القلب النقى لعذراء !

وعندما أقبلت فيلبينا لتوقظ الفتاة فى البكور ، وجدتها ما تزال جالسة إلى النافذة المفتوحة .. وتوسلت إليها تاتيانا أن تتكفل بإيصال الخطاب إلى يوجين دون إبطاء .. فترددت المربية فى البداية ، وعنفتها على قضائها الليل

بأكمله ساهرة على هذا النحو ، لكنها حين أدركت أن الصبية ما تزال تعانى انفعال الأمس ، لم تجد بدا من أن تجاريها .. فأخذت الخطاب واعدة بتسليمه إلى صاحبه فورا ..

لكن تاتيانا حين انفردت بنفسها دفنت وجهها بين راحتيها وقد أدركها شيء من الشعور بالندم على إرسال الخطاب ، والتساؤل عما إذا كان يوجين سوف يمنحها اللقاء الذى طلبته ؟.. فإذا هى تارة تأمل أن يقبل دعوتها الحارة ، وتارة تصلى من أجل رفضها !

« ٢ »

● وتقدم النهار .. واقترب الموعد الذى ضربته ليوجين .. فحزمت شجاعتها واتجهت إلى مكان اللقاء .. يتناهب قلبها الشك والشوق ، وترتعد أوصالها رعبا من نتيجة المقابلة ، وخوفا من أن يقابل حبها بالسخرية والصد .. وإن ملأ قلبها فى الوقت ذاته خوف مماثل خجول من أن يقابل حبها بالوصال .

.. فلما أقبل أونيجن فى الموعد المرتقب ، تبخرت شجاعة الفتاة الضئيلة المدخرة ، فى مثل طرفة العين .. وتركتها ترتعش فى حضرة الرجل الذى أحبته بكل ذلك العنف ، بحيث لو لم يطلب إليها فى لهجته الآمرة أن تبقى ، لكانت قنعت من الغنيمة بالفرار !

.. واقترب الشاب من الفتاة المنفعلة ، قائلا إنه قد استلم رسالتها ، وقرأها بامعان .. وما دامت قد اختارت أن تكون صريحة معه ، فليكن هو بدوره صريحا معها ..

ثم مضى فى حديثه فاعترف لها — فى نبرات خالية من الحرارة ، وإن خالطها الأسف — بأنه قد خبر الحياة حتى ملها ، فلم يعد فى حال تسمح له بأن يتقبل منها هذا الحب النقى الناشئ الذى تعرضه عليه .. فضلا عن أنه ليس بالشخص الذى يستحق مثل هذه الهبة الكريمة ، ولا هو بالذى يملك أن يقدم إليها مقابلا لهذه الهبة أو بديلا !

أنصتت تاتيانا وهو ترتجف إلى هذه العبارات الباردة الصريحة ، فأحست كأن كل عبارة منها هى طعنة تسدد إلى قلبها ... وتملكها شعور قوى بالعار والخجل ، سحقها سحقا !

أما أونيجن ، فرغم أسفه من أجل الألم الذى جرع الفتاة كأسه المريرة ، والخيبة التى أصاب بها قلبها الحالم .. فقد رجاها فى لهجة أكثر تأنيبا من ذى قبل ، أن تقمع مشاعرها وتكون أكثر تحفظا فى المستقبل ، خشية أن تجود بعاطفتها على رجل يكون أقل منه التزاما لحكم ضميره ، فيقابل اندفاعها باستهتار ، وعدم مبالاة !



« أنصتت تاتيانا وهى ترتجف إلى هذه العبارات .. »

ثم تناول يوجين يد الفتاة ، وقادها فى رفق وملاطفة إلى بيتها !

● **وانقضت** أسابيع ..

وذات مساء أقامت مدام لارينا سهرة راقصة احتفالا بعيد ميلاد تاتيانا « الثامن عشر » .. وكان بين من دعتهم « لينسكى » وصديقه يوجين أونيجن . ورغم روعة الحفلة وتعدد وسائل اللهو فيها ، وازدحامها بصفوة منتقاة من علية القوم فقد ضاق يوجين صدرا بها ، وإن قضى أكثر وقته خلالها بصحبة تاتيانا ، التى كانت طبيعتها الحالمة ما تزال تستميله إليها .. أما الفتاة فقد ظلت طيلة الوقت صامتة ، تخفى قلقها المكتوم ، حتى تبين هو حيرتها وحرج موقفها ، فتركها لأفكارها !

لكن شعوره بالمضايقة تزايد ، إلى حد أحنقه على صديقه لينسكى الذى أغراه بحضور الحفلة .. فلما سنحت له فرصة لشفاء غليله من صاحبه سارع بانتهازها .. فقد لمح خطيبة لينسكى الحسناء الضاحكة « أولجا » بالقرب منه ، فدعاها لمراقصته عدة رقصات متتالية ، ومن بينها رقصة نصف الليل التى كانت قد وعدت بها خطيبها !

وصادفت الدعوى هوى من نفس المعابثة الجريئة بطبعها ، فقبلتها مرحبة .. الأمر الذى ملأ قلب خطيبها استياء وغيرة ، سيما وأنه كان يخصها بحبه النارى الذى لا يقبل أن يقاسمه إياه أى شريك !

وهكذا جعل لينسكى يرقب ــ واجما ــ خطيبته وصديقه وهما يزوغان بين الكتل المتراصة من أجسام الراقصين ، بل ويلحظ بغضب متزايد تلك النظرات الماكرة التى جعلت أولجا ترمق بها مراقصها

الوسيم وهى تعابثه .. فلما انتهت الرقصة عجز عن مغالبة شعور الحقد الذى اشتعل فى قلبه ، فاتهم صديقه يوجين أمام الملأ بأنه يحاول أن يسلبه حب خطيبته .. ثم تحداه علانية أن يبارزه فى اليوم التالى !

وقد حاول أونيجن فى البداية أن يحمل الأمر على محمل المزاح ، مؤكدا أنه لم يفكر ألبتة فى الاعتداء على كرامة صديقه أو شرفه .. أما أولجا ، التى ذعرت وأدركها الندم على تصرفها المستهتر الذى يوشك أن يؤدى إلى أخطر النتائج ، فقد توسلت إلى خطيبها بدورها أن يهدئ من ثائرته ويعتبر الأمر كأن لم يكن ..

لكن غيرة لينسكى الحمقاء لا تخضع لحكم العقل ، فيتمادى فى صب جام غضبه وإهاناته على أونيجن .. إلى الحد الذى يخرج هذا عن طوره ويفقده السيطرة على نفسه فيعلن غاضبا أنه قبل التحدى والمبارزة !

وأمام هذه النتيجة التعسة ، يستولى على المدعوين الانزعاج والذعر ، فيشرعون فى الانصراف جماعات .. وهكذا ينفض المرقص الذى بدا بهيجا ، فى جو من الاضطراب والكآبة ..

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى يلتقى لينسكى ويوجين مع شهودهما فى بقعة منعزلة من المنطقة .. وهناك تتم المبارزة ، بعد اتخاذ إجراءات الفروسية التقليدية ، وقد أحس كلا الصديقين بالأسف على مصير الصداقة الطويلة السعيدة التى ختمت على هذا النحو الرهيب .. بل ود كلاهما لو نطق بالعبارة التى ترضى كرامة صديقه وتفض النزاع .. لكن الكبرياء أخرس لسانيهما .. فلما أعطيت الإشارة ، رفع كلاهما غدارته .. وأطلق النار بغير إبطاء !

وفى اللحظة التالية سقط لينسكى على الأرض بلا حراك ، فلما جرى نحوه يوجين ــ الذى لم يمس بسوء ــ مع أتباعه وشهوده ، ورفع رأس صديقه بين ذراعيه ، تبين والفزع يقبض قلبه ، إن الشاب ذا الطبع النارى قد .. مات !

ملأ الأسى قلبه ، وفاض .. واستبد به الندم والحزن وتبكيت الضمير .. وتحت ضغط القلق النفسى ، والتعاسة المدمرة ، غادر أونيجن الإقليم فورا .. وعاش يتخبط ويتنقل من قطر إلى قطر ، بضع سنوات ، دون أن يستقر له قرار فى أى منها ، محاولا أن يغرق فى التجوال همه المقيم ، وذكرياته التى تملأ رأسه وتطارده كالأشباح ..

« ٤ »

● ولكن لا تغيير الجو والمكان ، ولا المغامرات الفاجرة المتنوعة ، تفلح فى إعادة السكينة والراحة إلى قلب يوجين !

.. وأخيرا ، وتحت تأثير الشوق الذى لا يقاوم إلى العودة مرة أخرى إلى مسرح المأساة ، يشد التعس رحاله إلى وطنه .. فلا يبلغ العاصمة « سانت بطرسبرج » حتى يتقاطر عليه أصدقاؤه القدامى ويقنعوه بالبقاء بين ظهرانيهم بضعة أسابيع .. ثم يتلقى دعوة إلى مرقص فاخر يقيمه نبيل رفيع المقام يدعى الأمير « جريمين » ، فيقبلها تحت ضغط أصدقائه وإغرائهم ..

.. وفى مساء يوم الحفلة يمضى إليها ، غير ملهوف .. وفعلا يعجز

جوها المرح الصاخب عن إدخال السرور والبهجة إلى قلبه الممـزق الكليل ..

وفيما هو يطوف بغرف القصر حائرا ، قلقا ، لا تفتأ ذكرى المبارزة المشؤومة تعاوده بكل دقائقها ، وتلح على خاطره .. وأفكاره المبلبلة تنحى عليه باللائمة ، وتطارده بالاتهام فى عنف وحدة ..

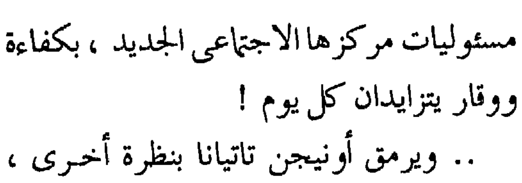
ثم يلحظ حركة غير عادية بين المدعوين ، وغمغمة وهمسات تفيض بالإعجاب .. فيوجه بصره إلى حيث اتجهت أبصارهم ، وإذا هى مركزة على حسناء رائعة ترتدى ثوبا فاخرا وتتحلى بثروة من الجواهر الثمينة الباهرة ، تمرق بين حلقات الضيوف فى خفة وجلال ، وتوزع ابتساماتها وتحياتها الوفورة عليهم برشاقة أخاذة ..

ولا يحتاج أونيجن إلى أكثر من نظرة ثانية فاحصة ، كى يتبين فى الحسناء ربة الدار .. عذراء الماضى الحالمة « تاتيانا » !

لكن تاتيانا قد تغيرت .. لم تعد صبية حالمة ، سابحة فى خيالها ، وإنما صارت امرأة ناضجة ، تفيض الفتنة من موطئ قدميها ، وتبدو كالملكة بين هذا الحشد من الحسان والغيد ..

نعم ، إنها تاتيانا بعينها .. أخذت من بيتها الريفى الهادئ إلى حيث أصبحت الزوجة المحبوبة للأمير « جريمين » الذى يوليها ، رغم فارق السن الكبير بينهما ، حبا يقرب من العبادة .. ولا يدخر وسعا فى سبيل إسعادها وجعل حياتها فى كنفه موفورة الهناء والرفاهية ..

أما هى ، فبرغم عجزها عن أن تمنحه حبها وقلبها ، صارت له مثال الزوجة المخلصة التى تكرس حياتها لراحته .. بل أخذت على عاتقها عبء



مسئوليات مركزها الاجتماعى الجديد ، بكفاءة ووقار يتزايدان كل يوم !

.. ويرمق أونيجن تاتيانا بنظرة أخرى ، فيحس نحوها بميل مضاعف ، بعد أن نضج جمالها واكتملت لجسمها وعقلها أسباب الفتنة والجاذبية .. فينبض لها قلبه فجأة بإحساس جديد غريب ، لعله النشوة .. أو لعله الشهوة !.. ويتملكه — وهو الذى حسب عهده بالانفعالات العاطفية قد انتهى — فرح دافق يضاعف من سرعة نبضات قلبه ، ويتخطف كيانه كتيار كهربائى مباغت !



« .. ويرمق أونيجن تاتيانا بنظرة أخرى ، فيحس نحوها بميل مضاعف .. »

ويتزايد انفعاله حين يقبل عليه الأمير « جريمين » فيقدم له زوجته الحسناء الرائعة فى زهو واعتزاز .. ورغم أن تاتيانا تلقاه بفتور وهدوء ، أقرب إلى البرود ، دون أن تكلف نفسها مشقة إخفاء صلة الجوار القديمة بينهما فإن سمة العاطفة المكبوتة التى تبدو فى عينيها العميقتين الرقيقتين تشى فى وضوح بأن حبها له لم ينطفئ ، وإنما هو جذوة كامنة تحت رماد السنين لا ينقصها غير الأنفاس الحارة ، لكى تشعلها من جديد .. بل لعل هذا الحب القديم قد عمقت جذوره فى نفسها بعد نضوج أنوثتها !

وفيما هى تبتعد عنه ، متعلقة بذراع زوجها ، يحس أونيجن بقبضة الغيرة الحادة القوية تعصر قلبه بشدة ، ربما لأول مرة فى حياته !.. ويتبين أنه يحب هذه المرأة بكل طاقة وجدانه !

ويعجز يوجين عن كظم عاطفته المتأججة العاتية ، فيعتزم أن يبوح لتاتيانا بحبه ، بأى ثمن !.. وهكذا يمضى فيربض فى ركن قصى ، فى انتظار مرورها .. فلا تكاد تمر به حتى يبرز لها من مكمنه والانفعال يهز كيانه كله ، ويصارحها بعاطفته الجارفة ، مناشدا إياها أن تبادله إياها فيستردا سعادتهما التى فرط فيها بغبائه فى الماضى !

أما هى فتنتهز الفرصة كى تذكره فى مرارة بما صدر منه ، وكيف صد حبها القديم ناظرا إلى الأمر كنزوة طارئة من صبية حالمة ، بل وعمد إلى تأنيبها بشدة على اندفاعها وراء عواطفها بدون روية ..

وتطعن عباراتها فؤاد يوجين ، فيجثو على ركبتيه ويتوسل إليها بانفعال متزايد أن تغفر له ما بدر منه ، وتمنحه حبها الذى يتوق الآن أكثر من أية أمنية أخرى فى حياته !

وأمام حرارة توسلاته ودموعه ، وعنف انفعاله ، تعجز المرأة عن الصمود .. وعن مواصلة التظاهر بالفتور نحوه .. فتعترف له فى انفعال مماثل بأن حبها له لم يزل كالعهد به قويا جارفا ، وتملأ قلبها فرحة محمومة لمجرد التفكير فى أن حبها المرفوض قد بلغ غايته أخيرا ، وصار متبادلا !

ويناشدها يوجين فى حمى نشوتهما الدافقة أن تفر معه ، كى يبدآ حياتهما السعيدة المشتركة فى كنف حبهما العظيم الذى لم يعد يجدى إنكاره أو تجاهله .. لكن جرأة الفكرة ترد للمرأة صوابها الذى زلزلته

المفاجأة ، فتنهى إلى يوجين عزمها على البقاء وفية لزوجها ، مهما كلفها رفض توسلات حبيبها من ألم مرير !

ورغم ذلك لا يقنط يوجين ، فيواصل ابتهاله الحار إلى حبيبته أن تطيع نداء قلبها الشاب .. لكن تاتيانا تصمد — وإن يكن بصعوبة — للإغراء الذى يكلفها أكثر من طاقتها على الاحتمال ، فترفض فى حزم ما يعرضه عليها أونيجن !.. وخوفا من أن يخور عزمها لو طال بقاؤها معه ، تعمد إلى التخلص من قبضته وتهرع مبتعدة عنه ، بعد أن ترمقه بنظرة وداع أخيرة .. تمزقها الحسرات !

وعندئذ .. وقد ملأ اليأس قلب أونيجن ، وأيقن أن السعادة التى طالما اشتاق إليها قد حرمت عليه إلى الأبد .. يخرج مسدسه من جيبه ويسدده إلى صدره !

وفى اللحظة التالية يسمع دوى رصاصة ، ويخر يوجين على الأرض .. فاقد الحياة !

* * *